

مؤشرات الإنتاج السوسيولوجي في تونس: المواضيع و الإشكاليات

فتحية السعديي

مقدمة

ظهر مصطلح علم الاجتماع مع أوغست كونت (1789-1857) الذي ورث عن أستاذه كلود أنري سان سيمون إرادة تأسيس علم مستقل بذاته يدرس الظواهر الاجتماعية. وبعد إميل دوركايم أول عالم اجتماع يبلور منهاجا علميا لعلم الاجتماع من خلال كتابه الشهير "قواعد النهج في علم الاجتماع" (1895).

لقد تطور علم الاجتماع على يد العديد من علماء الاجتماع الفرنسيين والأمريكين والألمانيين والإيطاليين... ويهمتم هذا العلم بدراسة الإنسان في إطار المجتمع الذي يعيش فيه من خلال دراسة العلاقات الاجتماعية بين الأفراد ودراسة الأنساق والأنظمة الاجتماعية وأليات اشتغال المجتمعات الإنسانية وما يتربى عنها من حراك ومن تغير وتحول اجتماعي... إن علم الاجتماع هو علم الدلالات الاجتماعية والأسباب الرمزية والأسباب الدالة، هو "بالأساس إنتاج لمان ودلالات، إنه أسلوب إنتاج الأسباب الدالة للمجتمعات... فمن بناء الواقع الاجتماعي إلى إنتاج المعلومات، ومن وصف السيرورات الاجتماعية إلى تحليل النظم الاجتماعية، يُسند علم الاجتماع، ويوزع، ويمثل، بفضل بناء الواقع الاجتماعي وتفسيره معان ودلالات."¹

أستاذة مساعدة بكلية علم الاجتماع، جامعة تونس.

¹ جيوفاني، بوسينو، تقد المعرفة في علم الاجتماع، ترجمة د. محمد عرب صالح، بيروت، لبنان، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1995، ص 13.

إن النشأة الحديثة لعلم الاجتماع في الغرب قد واكبها جدل عميق بين علماء الاجتماع حول المناهج والأطر النظرية لهذا العلم. ولئن حدد علماء الاجتماع الكلاسيكيون اتجاهات نظرية كبرى، إلا أن ذلك، لم يلغ الجدل الدائر حول أهمية هذا العلم وحول دوره في المجتمع. فقد أكدت حادثة بوسطن² (خلال القرن العشرين)، " بأنه لا تزال هناك جملة من القضايا الأساسية في كلاسيكيات علم الاجتماع تحظى بمزيد من الاهتمام وعدم الاتفاق في الدراسات الأخيرة عن الأسس التي تقوم عليها النظرية والمنهج".³

إن ما ميز الجدل الفكري الذي شهدته القرن العشرين بين كل الاتجاهات في علم الاجتماع هو إحياء الراديكالية في البحث الاجتماعي. وهو جدل وليد عصره يكشف عن السياق الاجتماعي الذي ظهر فيه ويعبر بشكل جلي عن جيل جديد من السوسيولوجيين الذين اتجهوا إلى إعادة النظر في المفاهيم والنظريات والمناهج التي قدمها علماء سابقون فسروا البناء الاجتماعي القائم وبرروه ودافعوا عن مشروعيته. وبدأ مع هذا الجيل الحديث عن أزمة مجتمع وأزمة علم يطمح لإعطاء دور جديد لعالم الاجتماع بوصفه مثقفا حاملا لمشروع تغيير مجتمعي. إزاء هذه الحركة التي شهدتها حقل التأمل النظري لعلم الاجتماع في الغرب نقل مجموعة من علماء الاجتماع العرب في بداية الثمانينيات هذا الجدل إلى الساحة العربية، فكان أن نظمت الجمعية العربية لعلم الاجتماع ندوة تحت عنوان "نحو علم اجتماع عربي: علم الاجتماع والمشكلات العربية الراهنة".⁴

وفي بداية هذا القرن الواحد والعشرين، يعود السؤال وبالحاج شديد، عما إذا كان الإنتاج السوسيولوجي العربي قد عكس فعليا اتجاهات فكرية وأيديولوجية

² شهد شهر أوت من سنة 1968 خلال الاجتماعات التي عقدها الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع تنظيم أعضاء حركة تحرير علم الاجتماع، اجتماعات غير رسمية بجانب الاجتماعات الرسمية وخلال الجلسة الخاتمية سمح فيليب هاوسر رئيس الجمعية للراديكاليين أن يعبروا عن رأيهم فتقدم مارتن نيكولا وهاجم أعضاء الجمعية واتهمهم بأنهم امتداد للاتجاه التقليدي والنزعة المحافظة في القرن التاسع عشر... لمزيد الاطلاع، انظر د. زايد، أحمد، علم الاجتماع والاتجاهات الكلاسيكية والنقدية، مصر، دار المعارف، 1981.

³ د. أيوب، سمير، *تأثيرات الأيديولوجيا في علم الاجتماع*، بيروت، لبنان، معهد الإنماء العربي، الطبعة الأولى، 1983، ص 218.

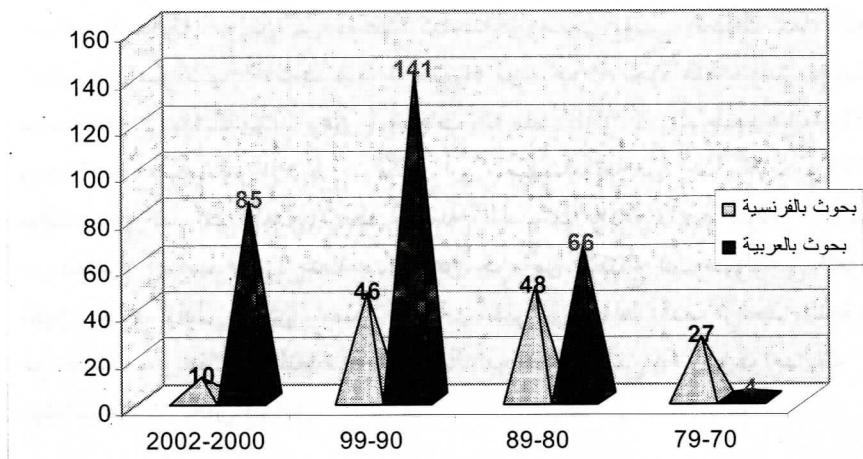
⁴ صدرت أعمال الندوة في كتاب عن مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، سنة 1986، الطبعة الأولى وسنة 1989 الطبعة 2.

في علم الاجتماع، وإلى أي مدى استطاع هذا الإنتاج بلورة ودراسة قضايا اجتماعية لصيقة بواقع المجتمعات العربية؟ إنني في هذا التعقيب عن ورقة أستاذنا علي الكنز التي كانت وراء التساؤلات السالفة، لا أدعى الإمام بالإجابة الشافية والدقيقة، ولكن من موقعي كباحثة، وجدت نفسي أسئل عما أنتجه الطلبة في إطار شهادة الماجستير والدكتوراه من بحوث اجتماعية، وعن معايير هذه البحوث وإشكالياتها وعن مواصفات أو ملخص Profil الباحثين والباحثات ومجالات اهتماماتهم المعرفية، فكان أن اتجهت لتفحص هذه الرسائل التي نوقشت في قسم علم الاجتماع بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، لأسمهم من موقعي في رسم صورة عامة ودالة عن جزء من الإنتاج السوسيولوجي العربي تكون محور تبادل ونقاش. ومنذ البداية، أشير إلى أن ما أقدمه في هذا التعقيب هو جملة من النتائج المتواضعة والأولية لبحث ستفضي طموحات بداياته إلى نهايات بحث عميق وشامل.

العينة وتمشي البحث

ت تكون العينة من 427 أطروحة ورسالة بحث منها 296 بحث مكتوب باللغة العربية و 131 بحث مكتوب باللغة الفرنسية، ونوقشت هذه البحوث في الفترة الممتدة بين سنة 1970 وسنة 2002. وهي بحوث موضوعة على ذمة الطلبة في فهرس عام للأطروحات والرسائل وموعدة بمكتبة كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس. وتتنوع العينة المدرosaة من البحوث حسب اللغة المكتوبة بها وحسب فترات زمنية محددة على النحو المبين في الرسم البياني التالي:

توزيع الإنتاج العلمي لطلبة علم الاجتماع بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس حسب السنوات ولغة البحث

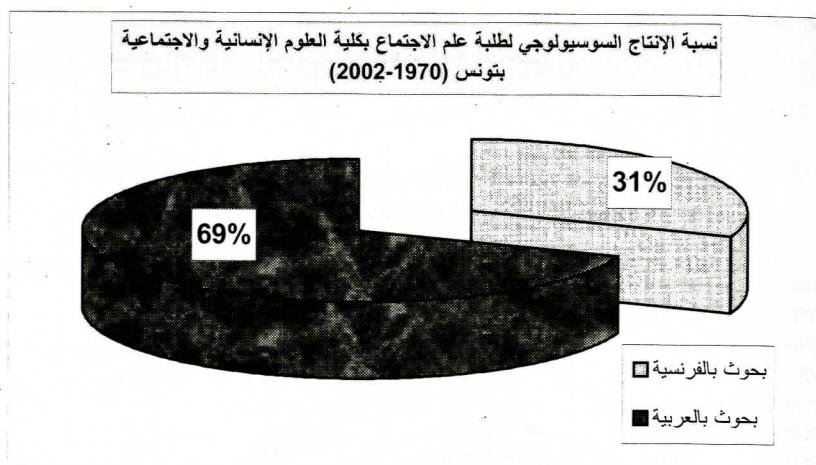


رصدنا مختلف الموضوعات المبنية في الفهرس المشار إليه⁵، وصنفناها حسب جنس الباحث وجنس المؤطر وحسب أربعة فترات زمنية - غطت فترة السبعينيات والثمانينات والتسعينيات 2002-2000، ووفق مجالاتها ومواضيعها وإشكالياتها. إن هذا الرصد لم يلغ من ذهنا الرغبة في التعرف على الأساتذة المؤطرين: من هم هؤلاء المؤطرين؟ وما هو جنسهم؟ وهل لهم توجهات فكرية وإيديولوجية ومعرفية معروفة؟ وما هي الاهتمامات البحثية للطلبة من الذكور ومن الإناث؟ وما هي الفترة الزمنية التي تناولت فيها البحوث المكتوبة باللغة العربية؟ وما علاقة الموضوعات المدرستة بالبيئة والبيان؟ أسئلة نجيب عنها في معرضتناولنا لنتائج هذا العمل.

بنوراما الإنتاج السوسيولوجي للطلبة

ترتفع نسبة البحوث المكتوبة باللغة العربية مقارنة مع البحوث المكتوبة باللغة الفرنسية وهو ما نتبينه من الرسم البياني التالي :

⁵ يوجد فهرس للأطروحات والرسائل المكتوبة باللغة العربية وآخر للأطروحات والرسائل المكتوبة باللغة الفرنسية.

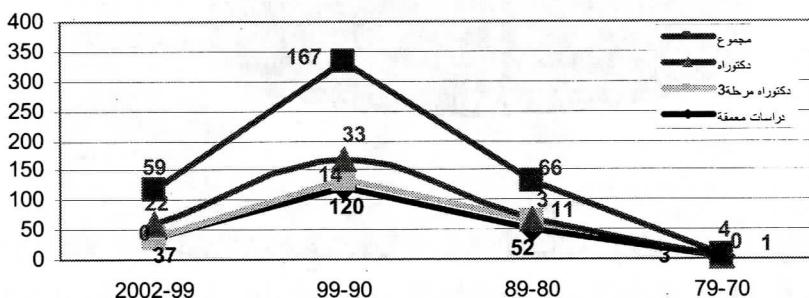


أن نشأة قسم علم الاجتماع بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس⁶ حديث نسبيا، إذ صدر أول أمر ينظم الإجازة في علم الاجتماع في 14 أفريل 1961، وشهد هذا الأمر العديد من التعديلات. ولقد تناهى استقطاب الطلبة في قسم علم الاجتماع بداية من أواسط السبعينيات، وهو ما يفسر ضعف الإنتاج العلمي للطلبة في فترة السبعينيات والثمانينيات بالمقارنة مع فترة التسعينيات. وتتجدر الإشارة، إلى ارتفاع عدد البحوث المكتوبة باللغة الفرنسية في فترة السبعينيات مقارنة بالبحوث المكتوبة باللغة العربية، حيث بلغ عدد البحوث باللغة الفرنسية في الفترة المشار إليها، 27 بحث مقابل 4 بحث باللغة العربية. وبلغ عدد البحوث باللغة الفرنسية التي نوقشت في كليات أجنبية 22 بحثا منها 17 بحث نوقشت في كليات فرنسية، وأثنان في كندا وباحث واحد في أوسلو وباحثان في الجزائر. وتتوزع هذه البحوث حسب الفترات الزمنية على النحو التالي: 19 بحثا نوقشت في السبعينيات وبداية الثمانينيات، في كليات أجنبية مقابل ثلاثة بحوث فقط نوقشت في التسعينيات. وبلغ عدد البحوث المكتوبة باللغة الفرنسية 20 بحثا وباحثان باللغة الإنكليزية، حسب المعطيات المتوفرة في فهارس البحوث التي أشرنا إليها.. وفي الآن ذاته اتجهت البحوث المكتوبة

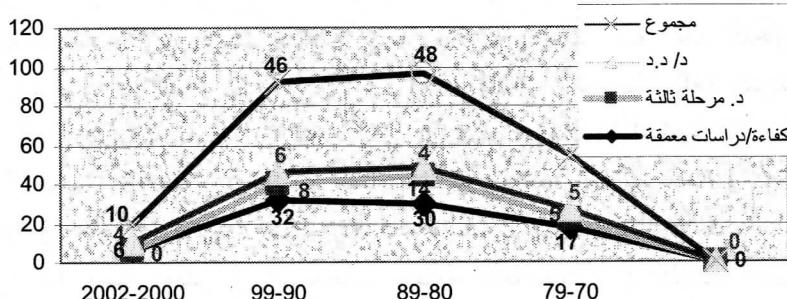
⁶ قسم علم الاجتماع بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية هو أول قسم تم إحداثه في الجامعة التونسية التي تحظى اليوم بقسمين آخرين أحدهما بكلية الآداب بصفاقس والثاني بالمعهد العالي للعلوم الإنسانية بتونس

باللغة العربية إلى الارتفاع في فترة التسعينات. ويبين الرسميين التاليين توزيع البحوث حسب الفترات الزمنية وحسب لغة البحث :

توزيع الأطروحتات ورسائل البحث في علم الاجتماع بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس حسب السنوات ونوع الشهادة (بحوث باللغة العربية)



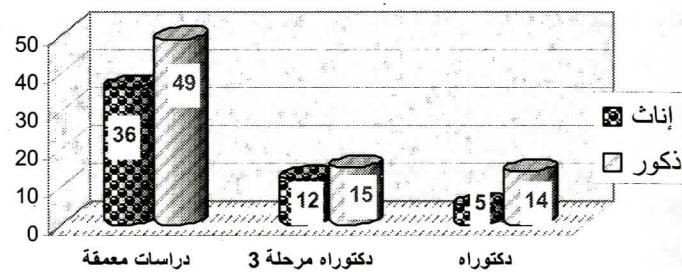
توزيع الأطروحة ورسائل البحث في علم الاجتماع بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس حسب السنوات وحسب نوع الشهادة (بحوث باللغة الفرنسية)



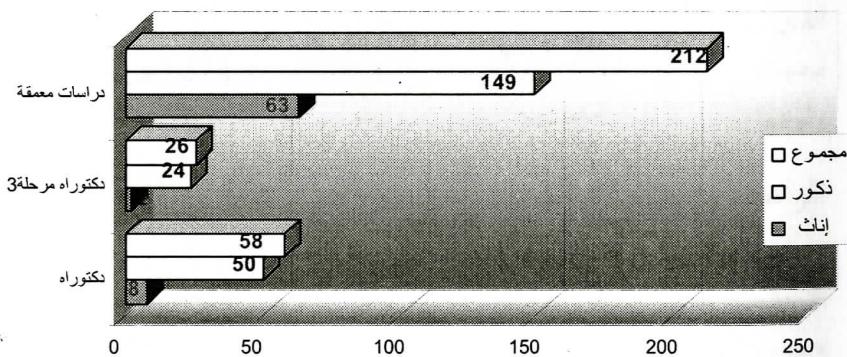
الرسائل المكتوبة بإحدى اللغتين الرسميتين في تونس (العربية أو الفرنسية) مرتفع بالمقارنة مع عدد البحوث المعدة في إطار شهادة الدكتوراه (77 أطروحة مقابل 350 رسالة بحث). كما بلغ عدد الأطروحات باللغة العربية 58 بحث منها 50 بحث لذكور وثمانية بحوث لإناث، كما بلغ عدد الأطروحات باللغة الفرنسية 19 بحث منها 14 بحث لذكور وخمسة بحوث لإناث. و تفيد هذه

المعطيات الإحصائية بأن عددا من الطلبة لم يواصلوا دراساتهم العليا، وهو ما يجعلنا نتساءل عن المسار البحثي والمهني للباحثين؟ وعن الأسباب الكامنة وراء هذا الانقطاع، فلقد تبين لنا ونحن نتحفظ أسماء الباحثين خاصة في فترة السبعينيات والثمانينيات بأن قلة منهم من أنهى دراسته العليا مستثنين طلبة أواخر التسعينيات على أساس، أنه بالإمكان أن يكون بعضهم أو غالبيتهم ما زال مسجلا في شهادة الدكتوراه. ويبين الرسميين التاليين توزيع البحوث حسب جنس الباحث ونوع الشهادة ولغة البحث:

توزيع الأطروحتات ورسائل البحث في علم الاجتماع بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس حسب جنس الباحث ونوع الشهادة (بحث مكتوبة باللغة الفرنسية في الفترة الممتدة بين 1970-2002)



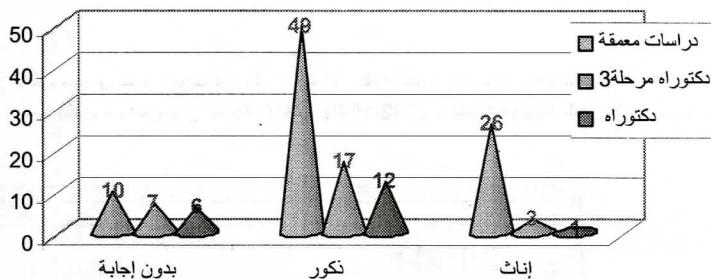
توزيع الأطروحتات ورسائل البحث في علم الاجتماع بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس حسب جنس الباحث ونوع الشهادة (الفترة 1970-2002 : بحث مكتوبة بالعربية)



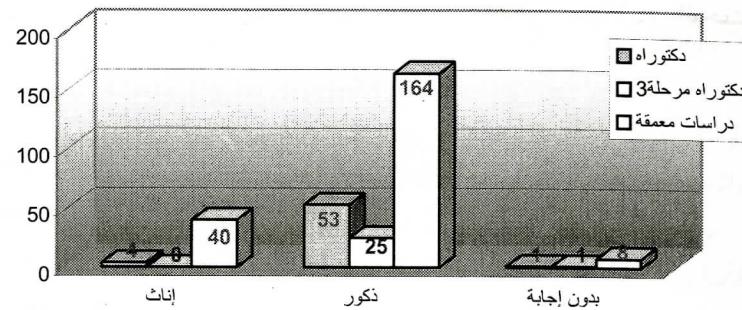
لتن حققت نسبة التمدرس في تونس ارتفاعا متنام فإن مجال البحث العلمي في علم الاجتماع ما زال محثشما إذا ما قورن بنسبة خريجي هذه الشعبة. وتفيد المعطيات الإحصائية التي تمكنا من إنجازها بأن عدد الباحثين أكثر من عدد الباحثات.

إن فجوة المعرفة بين الجنسين ما زالت شاسعة، ويرجع ذلك، لتعدد أدوار النوع الاجتماعي لدى النساء المتقللات بالدور الإنجابي وبالالتزامات المجتمعية والعائلية. فلقد بلغ عدد الباحثات من الطلبة في الفترة المترادفة بين 1970 و2002 مائة وستة وعشرون باحثة مقابل ثلاثة مائة واحد باحث. إن ضعف عدد الباحثات من الطلبة لا يختلف كثيرا عن عدد الباحثات اللواتي يتولين التأثير العلمي في قسم علم الاجتماع، فقد بلغ عدد المؤطرات لبحوث الطلبة 74 مقابل 320 أستاذ مؤطر. وتتوزع البحوث حسب جنس المؤطر ونوع الشهادة ولغة البحث في الرسميين التاليين:

توزيع الأساتذة الموزعرين للبحوث في الاجتماع بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس حسب الجنس ونوع الشهادة خلال الفترة المترادفة بين 1970-2002 (بحوث مكتوبة باللغة الفرنسية)



توزيع الأستاذ المؤطربين للبحوث في علم الاجتماع بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس (بحوث باللغة العربية من 1970 إلى 2002)



لقد شهدت الفترة الممتدة بين 1970 و1975 غياباً تماماً لأي بحث باللغة العربية، و توجد أربعة بحوث فقط من سنة 1976 إلى سنة 1979. إن غالبية البحوث المودعة بالكلية التي تخص الفترة المشار إليها (أي السبعينيات) مكتوبة باللغة الفرنسية. كما أنه لم ينافش أي بحث سواء باللغة العربية أو الفرنسية خلال سنة 1994، ويعود ذلك، إلى الإصلاحات التي أجريت على نظام الشهادات العلمية الذي بدأ العمل به خلال السنة السالفة الذكر. كما شهدت الفترة الممتدة بين سنة 1985 وسنة 1986 ضعفاً شديداً في مجال الإنتاج السوسيولوجي للطلبة، ويعزى ذلك، بتقديرنا إلى نظام الشهادات العلمية القديم الذي يخول للباحث التسجيل لفترة زمنية طويلة دون إلزام فعلي بمدة زمنية محددة لإنتهاء البحث ، وهو ما أفضى إلى إصلاح نظام الشهادات ومدتها الزمنية ونوعها.

المواضيع وإشكاليات البحث السوسيولوجي

إن تصنيف الإنتاج السوسيولوجي وفق مجالات الاختصاصات في علم الاجتماع عملية دقيقة ومعقدة خاصة وأن التكوين السوسيولوجي للطلبة عام ومتعدد التخصصات، إذ نجد بحوثاً يمكن تصنيفها في أكثر من مجال، كما أنها بحوث قد استخدمت أكثر من براديفم واحد وأكثر من مقاربة نظرية. ولتصنيف

البحوث موضوع هذا البحث حددنا 15 مجالاً للبحث الاجتماعي وقمنا بتبييّنوجيا المواقع وفق الفترات الزمنية التي حددناها آنفاً وزعنها حسب جنس الباحث. ونشير إلى أن اهتمامات الباحثين والباحثات من الطلبة تعكس بشكل مباشر اهتمامات أساتذتهم. ويبين الجدول التالي مجالات البحث المدروسة حسب الجنس :

المجموع	نساء	رجال	المجال
23	7	16	التنظيمات
22	8	14	الأسرة
36	14	22	علم النفس الاجتماعي
18	5	13	الدور والفعل الاجتماعي
42	16	26	الشغل
46	10	36	الحرك والتغير والتحول الاج
10	2	8	الاندماج وال العلاقات الاج
28	10	18	السياسة والسلطة
51	6	45	التنمية والتحضر
71	24	47	الثقافة
21	5	16	التربية
17	7	10	الإعلام والاتصال
16	3	13	الديمغرافيا
14	1	13	التاريخ الاج
12	7	5	علم اجتماع المعرفة
427	125	302	المجموع

تندّر المواقع التي درست من قبل الطلبة الباحثين كما أشرنا في خمسة عشر مجالاً، ويرتفع عدد البحوث بشكل عام في أربعة مجالات وهي : علم اجتماع الشغل (42)، علم اجتماع الحراك والتغير الاجتماعي (46)، علم اجتماع التنمية (51) وعلم اجتماع الثقافة والأنثروبولوجيا (71). ونشير إلى أن اهتمامات

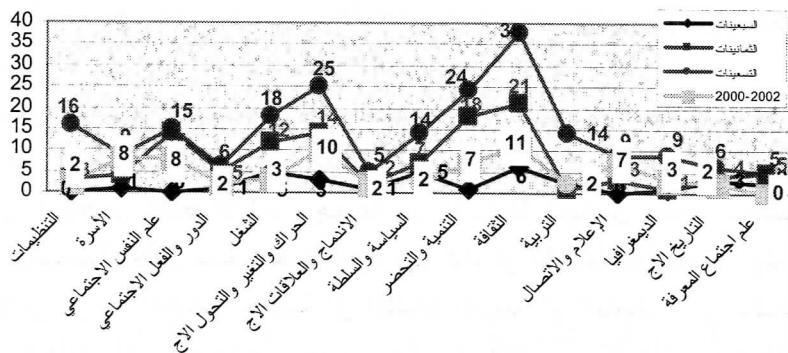
الباحثين من الطلبة لا يختلف كثيراً عن اهتمامات الباحثات، فالفارق المسجلة لا تملك دلالات عميقة. وهو ما يحلينا على الاستنتاج الذي يؤكّد بأن المواضيع المدروسة تعكس بقدر كبير اهتمامات الأساتذة المؤطرين. وفي هذا المضمار، تجدر الإشارة إلى أن الأساتذة المؤطرين لمواضيع متعلقة بالمرأة والتي تناولت موضوعات المشاركة الاجتماعية، والسياسية والاقتصادية للنساء، ومسألة المساواة والإنصاف، هم من النساء، في حين يرتفع عدد الأساتذة من الرجال المؤطرين لمواضيع متعلقة بالتنمية والتشغيل والتاريخ الاجتماعي والثقافة.

تعكس المواضيع المبحوثة من قبل الطلبة من الجنسين رؤى وتوجهات فكرية للأساتذة الباحثين والباحثات. ويمكن تصنيف الأساتذة الباحثين إلى نمطين كبيرين : يخص النمط الأول، مجموعة من الأساتذة المهتمين بأبعاد سوسيو-ثقافية وسياسية تحمل مشغلاً عاماً مداره فهم الظواهر الاجتماعية ونقدتها، غالباً ما تتجاوز دراسة القضايا المحلية إلى القضايا العربية أو العالمية، وهي مشاغل المثقف الحامل لمشروع مجتمعي جديد يهدف إلى التغيير. وقد تناول هذا النمط من الأساتذة مواضيع تدرس دور المثقف والتحولات القيمية في المجتمع وتطرح إشكاليات الانتلجنسيّا العربيّة وتغيير القيم والعلاقة بين الأنّا/النحون والآخر والهوية والديمقراطية ومسألة المساواة بين الجنسين وقضايا تمكين النساء. أما النمط الثاني، فيخص مجموعة من الأساتذة المهتمين بقضايا محلية راهنة شهدتها أو يشهدتها المجتمع التونسي مثل موضوع الهجرة والتنمية الريفية والجهوية والتشغيل والتحضر والسياحة والزواج والطلاق والعزوبة والتحولات الديمغرافية... وهي مشاغل تخص فهم أوضاع اجتماعية فرضها السياق الوطني / المحلي.

لقد تأثرت المواضيع المدروسة أيضاً بالتحولات الاجتماعية التي عايشت وتعيش المجتمع التونسي، فقد ارتفع عدد البحوث التي تناولت مسألة هجرة اليد العاملة وهجرة الأدمغة والتنمية الريفية والتحولات الديمغرافية في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات. وهي مواضيع قد عكست واقع الحال بالنسبة للمجتمع التونسي، من جهة ومن جهة أخرى، قد عبرت عن جزءٍ من مشاغل الدولة التونسية التي اتجهت إلى إنجاز برامج تنمية في الريف وفي الجهات والتي عقدت اتفاقيات مع دول أجنبية لتنظيم مسألة الهجرة. وشهدت فترة السبعينيات وبداية الألفية بروز مواضيع جديدة تدرس إشكاليات حديثة من نوع إشكالية توزيع الوقت وإشكالية تأثير السياحة على الاقتصاد والقيم والثقافة،

وإشكالية المعالجة الإعلامية للأحداث وأثر التلفزيون على الشباب ودور تكنولوجيات الاتصال الحديثة وما ينجر عنها من تحولات مجتمعية. ويبين الرسم البياني التالي توزيع البحوث حسب مجال الاهتمام وحسب السنوات:

توزيع الإنتاج العلمي للطلبة حسب المجال والسنوات (بحوث مكتوبة باللغتين)



إن أبرز الإشكاليات المدرستة وبمعزل عن مجالها قد تناولت مواضيع مهمة متعددة في عمق الهواجس الوطنية المحلية أو الهواجس العربية والعالمية. فإلى جانب ما أسلفنا من مواضيع، نجد مجموعة أخرى قد تناولت مواضيع متعلقة بالتنشئة الاجتماعية وبعملية الاندماج والعلاقات الاجتماعية، فدرست ظواهر سلوكية من نوع جنوح الأحداث والانحراف والعنف والسلطة داخل الأسرة، واندماج المعوقين ومرضى السيدا ومتناطي الكحول، والجريمة...

إن المواضيع التي تخص المعرفة السوسيولوجية على قلتها (12 بحث) فإنها لم تتجاوز حدود الفهم والتحليل لما كتبه بعض علماء الاجتماع، أمثال ابن خلدون وجورج سيميل... وقد اتجهت مواضيع أخرى كنا قد صنفناها ضمن مجال علم اجتماع المعرفة إلى دراسة موضوع الحداثة، وثقافة المؤسسة وخطاب المنظمات ومصطلح الخدمة الاجتماعية والتصور النسقي للفعل التنظيمي. ولقد تميزت هذه البحوث بعمقها التحليلي لمدارس كبرى في علم الاجتماع، ولم تتجه هذه البحوث إلى تعميق النظريات السوسيولوجية من خلال إنتاج مقاربات سوسيولوجية جديدة.

لقد تنوعت الماضي المدروسة في حقل اجتماع الثقافة بشكل خاص، فمن دراسة ثقافة الأقليات والإبداع والأصول الاجتماعية لكتاب التونسيين والمسرح والمعتقدات الشعبية إلى دراسة العلاقة بين النحن والآخر وإلى تحليل سيمائية الشارع ودللات الانتفاضة والهويات الخاصة. وهو ما يعبر عن تنوع معرفي عميق خاص بسوسيولوجيا الثقافة التي تأسست كمجال بحثي قائم بذاته يعود الفضل في إرائه إلى الأستاذ الطاهر لبيب الذي شكل وجوده في قسم علم الاجتماع منعرجا هاما في تاريخ الإنتاج السوسيولوجي التونسي والعربي. فالمواضيع التي درست في إطار هذا التخصص قد خرجت عن المؤلف وعن السائد في أواخر الثمانينات والتسعينات إذ اهتمت بقضايا مصيرية مهمة من نوع الآخر في ذاكرة الحرب والثقافون وحرب الخليج والذاكرة الجماعية والتحولات السياسية والإنتاج السوسيولوجي والآخر في الثقافة العربية، وثقافة المجتمع المدني ومسألة الديمقراطية... فرسمت من خلال الإشكاليات المبحوثة توجها فكريا واضحا يبحث في قضايا تتجاوز الفضاء التونسي لتتدنى إلى فضاء عربي يعج بالهواجس وبالقضايا العربية المشتركة. ولقد مثلت هذه التوجهات مدار نقاشات وندوات عربية كانت وراءها الجمعية العربية لعلم الاجتماع ومركز دراسات الوحدة العربية ومركز البحوث العربية وغيرها من المؤسسات التي حفظت على التفكير والبحث في مثل هذه المواضيع.

إن تناول موضوع المرأة قد شهد هو الآخر نقلة نوعية في أواخر التسعينات، فبعد التوجه لدراسة مسألة اندماج المرأة في سوق الشغل وهجرة اليد العاملة النسائية دور المرأة المنتجة والمرأة الريفية، اتجهت البحوث حول المرأة لدراسة موضوع تمكين النساء وهو منهج قد برز في إطار معالجات مقاربة النوع الاجتماعي والتنمية التي تم إقرارها بشكل رسمي وعالمي سنة 1995 خلال مؤتمر بيجين. وبهتم هذا المنهج بمعالجة قضية تعزيز مكانة النساء في موقع اتخاذ القرار وبضرورة مشاركة النساء في صوغ الإستراتيجيات التنموية. وبعد موضوع المساواة وتكافؤ الفرص بين الجنسين من أبرز المبادئ التي تناضل من أجلها الحركات النسوية في العالم، فليس من الغريب أن تشهد الجامعة التونسية وجود بعض النسويات اللواتي اتجهن إلى دراسة مسألة المساواة بين الجنسين والحقوق

السياسية والاجتماعية للنساء، وإلى دراسة فكر الطاهر الحداد⁷ ومقاربته بفكر بن مراد⁸ ودراسة الأفكار التحديثية لبورقيبة⁹. لقد عبرت البحوث المشار إليها عن توجهات فكرية وإيديولوجية واضحة وبارزة تحمل طموح التغيير ومواكبة المتغيرات العالمية والعربية وما يطرأ عنها من هواجس معرفية وإيديولوجية وسياسية.

ولئن اهتمت المواقع المدرجة في علم اجتماع الشغل في السبعينيات والثمانينيات بمسألة التشغيل والتنمية واتصال اليد العاملة الفلاحية إلى الصناعة وبقانون 1972 الخاص بالمؤسسات الاقتصادية الأجنبية التي انتشرت في تونس في فترة الانفتاح الاقتصادي، فإن الاهتمام الذي ساد في فترة التسعينيات والألفية قد اتجه إلى دراسة سياسة الدولة التونسية الجديدة في مجال التكوين المهني وبطالة حاملي الشهادات والسياسة الاقتصادية التونسية وبروز أصحاب المبادرات الحرة الصناعية ومسألة التدريب المهني والوقاية من حوادث الشغل، وتأهيل المؤسسة الصناعية الذي تزامن مع برنامج الإصلاح الهيكلية للأقتصاد. وهي مباحث تعبير عن اهتمامات تخص مراحل من تاريخ تونس الحديث وعن هواجس معرفية نابعة من صلب المجتمع التونسي.

قلة هم الطلبة الذين درسوا مباحث تدرج في علم اجتماع السياسة، فالمحاور التي درست في هذا المجال قد تناول بعضها دراسة بعض الأحداث الكبرى التي عاشها المجتمع التونسي في أواخر السبعينيات وبداية الثمانينيات، فقد تناولت هذه المباحث أحداث جانفي 1984 (انتفاضة الخبن) ودور الهمشرين فيها، الخطاب النقابي وأحداث جانفي 1978 (أزمة الاتحاد العام التونسي للشغل مع الدولة) وعملية قفصة 1980، واهتم بعض آخر من الباحثين الطلبة بظاهرة الإحياء الديني وبالحركة الإسلامية وبالإسلام السياسي وبالحركة الطلابية وبالخارطة السياسية في الريف التونسي... وهي مباحث تعكس اهتماماً بظواهر

⁷ الطاهر الحداد هو مصلح تونسي وأحد أبرز وجود مفكري النهضة، وقد نادى بتحرير المرأة من خلال كتابه الشهير "مرأتنا في الشريعة والمجتمع" (1930).

⁸ بن مراد هو أحد الوجوه الدينية التونسية التي عارضت أفكار الطاهر الحداد.

⁹ الحبيب بورقيبة هو رئيس الدولة التونسية من سنة 1956 إلى 1987، وهو من أصدر مجلة الأحوال الشخصية التي مثلت منعرجاً تاريخياً مهماً في مجال تحرير المرأة التونسية. وتعد هذه المجلة عالمة بارزة في البلاد العربية في مجال تحديث الأسرة والمجتمع.

سياسية وبأحداث ذات أبعاد سياسية وتهدف إلى فهمها وتحليل آثارها. وتجدر الإشارة، في هذا الصدد بأن هذه المواضيع قد درست من قبل طلبة لهم توجهات إيديولوجية واهتمامات سياسية. ومثل هذه الاهتمامات قد غاب خلال أواخر التسعينات وبداية الألفية على الرغم من أن آثار الفكر السلفي والديني الإسلامي ما زال يحتاج مزيداً من الدراسة والفهم والتحليل وإنتاج البذائل الثقافية التحديثية، كما أن عالم اليوم يشهد العديد من الظواهر والمتغيرات السياسية التي تحتاج الدراسة والفهم. وهو ما يحيلنا على التساؤل التالي: هل أن زمن الإيديولوجيات قد ول واندثر أم أن الاهتمامات السياسية للمثقف التونسي قد استهلكت ونفذت؟

ملاحظات وخلاصة عامة

علم الاجتماع –كما يفهم– هو تطبيق لمناهج البحث والمفاهيم السوسيولوجية على دراسة الظواهر والمشكلات الناجمة عن التحولات والتغييرات الاجتماعية والثقافية الخاصة بالحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للمجتمع. وهو علم جديد يعد ثمرة النهضة العلمية الحديثة في العالم. وهو حديث النشأة في تونس كعلم قائم بذاته، فأربعة عقود منذ نشأة علم اجتماع في تونس غير كافية للتأسيس لإبداع سوسيولوجي عربي/تونسي يطال نقد المناهج والمقاربات أو الطروحات التي أسستها التيارات السوسيولوجيا الغربية وإنتاج مقاربات نظرية جديدة. فالمواضيع التي تم دراستها من قبل الطلبة بلا شك قد طبقت مناهج علم الاجتماع وبلا ريب قد درست مواضيع مهمة ومعبرة عن الواقع وهذا لا يمنعنا من صوغ بعض الملاحظات العامة حول هذه البحوث.

- ✓ لقد اتسم عدد من البحوث المنجزة من قبل الطلبة بتكرارها لعدد من المواضيع وتغييبها لمواضيع أخرى ولمقاربات جديدة كمقارنة النوع الاجتماعي، مما يوحي في بعض الأحيان بأن الجامعة التونسية وكأنها في قطيعة مع النقاشات والطروحات الجديدة الدائرة على صعيد عالمي، خاصة، الموضوعات المتعلقة بحقوق الإنسان وحقوق المرأة.
- ✓ عدد من البحوث التي اطلعنا عليها وإن طبقت تقنيات البحث السوسيولوجي فإن استعمال البراديغمات السوسيولوجية قد غاب منها.

✓ إن البحوث التي أنجزت وإن حاولنا تصنيفها فإنها تحمل في طياتها تخصصات متنوعة، ويعود ذلك إلى التكوين العام الذي يتلقاه الطلبة خلال مراحل دراستهم في هذه الشعبة. فكل خريجي علم الاجتماع حاملين لأستاذية علم الاجتماع (العام)، إذ لا نجد على سبيل المثال، شهادة أستاذية علم اجتماع الشغل أو التربية أو التنمية أو الثقافة، مما أضفى على البحوث المنجزة في إطار المرحلة الثالثة والدكتوراه عمومية في التخصص، فكما نجد بعض المواضيع التي يمكن أن يصنفها في أكثر من مجال تخصصي، نجد بعضا آخر يصعب تصنيفه بشكل دقيق.

✓ إن غالبية البحوث المدرosa تصنف بشكل عام ضمن البحوث الكمية الاستطلاعية والاستكشافية دون تعمق كيفي أحياناً في الظواهر المدرosa. فقد لاحظنا قلة من الطلبة الذين تعمقوا في نفس الموضوع الذي درسوا في إطار شهادة الماجستير، وقلة أيضاً من الطلبة الذين واصلوا بحثهم في إطار شهادة الدكتوراه. وهي ملاحظة تنسحب بشكل أكبر على الباحثات من الطلبة.